العمل الفائز بجائزة الكتابة الجديدة في ويلز عام 2015

إلينيد جراميش

المرأة التي تجلب المطر

مذكرات من هوكايدو، اليابان

أدب رحلات

ترجمة: عبد الرحيم يوسف



إلى كونيكو وتاكاشي تاتينو



1

الجبل

طريق الوادي لسان كبير؛

هيئة الجبل جسد كأنقى ما يكون.

المعلم روجينج

الطريق إلى نيسيكو يمر وسط غابة، ثم أرض زراعية، ثم غابة من جديد. تدور السيارة حول التلال، متنقلة من البقع الظليلة إلى تلك الساطعة بالضوء، وتهبط منحدرة إلى جوف الوادي. الشمس، التي تتقطر عبر أوراق شجر القيقب الخضراء العريضة، تلعب مثل بكرة فيلم قديم عبر زجاج السيارة الأمامي، ألمح غزلانًا ناحلة الأطراف تخبّ بمحاذاة جانب الطريق، قبل أن تنفلت ما بين جذوع الشجر؛ أجسادها البنية المحمرة مبرقشة بظلال أشجار الغابة، أستعيد سطرًا من إحدى حكايات الآينو(1) الخيالية: (الجذور)، كتبوا فيه: *عن أشجار معينة معروف عنها أنها تتحول إلى دببة*، ربما هناك أشجار معينة تتحول -أيضًا- إلى غزلان.

أسرتي المُضيفة، السيد والسيدة تاتينو، يجلسان في المقعدين الأمامين، لا يبدوان مهتمين بالحيوانات، التي يريانها كل يوم، ولا بالأشجار المختلفة، ولا بزهور الكاميليا المتفتحة بصخب بين الأشجار، لكننا عندما ندخل بالسيارة في منطقة مفتوحة، يحدثانني عن حجم السكان، وأعمال البناء، والمحاصيل، تُذكرني الحقول الفسيحة بشرقي إنجلترا، حيث كنت أدرس فترة، لكن الخضراوات هنا مختلفة، بالطبع هناك بطاطس وكرنب، لكن هناك -أيضًا- فول الإدامامية، ويقطين

هوكايدو الحلو، والدايكون (الفجل الأبيض)، والناجايمو (البطاطا الصينية) وجذور الواسابي (الفجل الياباني)، تعكس الصوبات الزراعية العملاقة كتلًا صادمة من الضوء على سطح الطريق.

لأميال وأميال ليس هناك بيت واحد، ثم تظهر البيوت؛ واحد، اثنان، ثلاثة. وبعد ذلك لا شيء من جديد؛ البيوت نفسها من عالم آخر، ليس هناك أي تماثل في النمط المعماري، ولا إحساس بأي طراز، هنا تجد شاليه تزلج، وهناك تجد بيتًا بنغاليًا؛ فيلا، كوخًا بسقف من الزنك المموج، يفسر لي تاتينو-سان أن الأثرياء من أهل طوكيو يشترون الأرض ويشيدون بيوت أحلامهم، لو يأتيه الحظ، سيشترون الأرض منه، يرنُّ هاتفه المحمول، يستقبل تاتينو-سان المكالمة بيد، والأخرى على عجلة القيادة.

«دومو» يقولها كتحية، مطيلًا «الواو» الثانية، هذه طريقة رجولية في الحديث: عفوية وواثقة ولها سمت إداري، لا أعرف أحدًا من مدرستي اليابانية يبدأ محادثة بهذه الطريقة. «دومو» يقولها ثانية في النهاية.

ما زالت بطاقة الترحيب التي أرسلها لي آل تيتانو في جيب معطفي، تضم البطاقة قائمة أساسية من المعلومات: اسماهما (تاكاشي وكونيكو تاتينو) واسم كلبتهما (هانا)، وعمرهما (64 و62) وهواياتهما (الجولف والساكي بالنسبة له، والكتب بالنسبة لها). كانت اللمسة الشخصية الوحيدة سطرًا في أسفل الصفحة، مخربشًا بخط الكانجي، الذي قضيت وقتًا طويلًا أخطئ في ترجمته: «نتطلع بشدة لمقابلتك، نكاد نموت لهفة»، وأرفقا كذلك صورة لهما هما الاثنان، مع كلبتهما هانا، جالسين في حجرة المعيشة. أظهرتهما الصورة شاردين جادين، لعلهما كانا قلقين بشأن عدَّاد الوقت في الكاميرا، أو ببقاء هانا ساكنة، والآن

ها هما يجلسان أمامي، بوجهيهما المختفيين جزئيًا، وكلامهما السريع -مثل كل اليابانيين- يتدفق داخل وخارج استيعابي، كما لو أني كنت أتنصت على محادثة تجري في حجرة أخرى.

دون كلمة واحدة، تفتح كونيكو زجاجة ماء وتحملها نحو شفتيَ زوجها.

«هذه نيسيكو-تشو..» يواصل بعد أن يأخذ رشفة، «تشو هي ما نسميه بالمنطقة. المدينة نفسها أبعد قليلًا أمامنا في الطريق».

انعطفنا في طريق من حارة واحدة، بدايته مزينة بأكوام صغيرة من ثمار قرع العسل؛ ذلك النوع البرتقالي الزاهي الذي كنت قد رأيته في محال السوبر ماركت في طوكيو.

تشرح لي كونيكو: «هي أكبر حجمًا من أن تباع لذا نضعها بجوار الطريق. إنها تملأ البلدة». نمر ببيتين ريفيين، كلب -من نوع السلوقي الهوكايدي- ينبح بشراسة ملاحقًا إيانا، نغوص في تجويف آخر من أحراش الغابة وفجأة يتدثر العالم بأشجار الصنوبر والقيقب والسرو.

عندما نخرج في الجانب الآخر، أرى فجأة شكلًا محيرًا غريبًا يندلع من الأرض الزراعية أمامنا، شكل مفاجئ للغاية حتى أني أحار في ما عليّ أن أقوله، لن يكفي التكرار الخجول لكلمة «*كيراي*» أو جميل، جبل طافٍ في الهواء، تبدو خطوط كتلته الخارجية غائمة في السماء الباهتة، ورغم أن القمة يخفيها الضباب، يمكنني تمييز خضرة أعشاب المنحدرات، وهي تهبط من السحاب لأميال وأميال على كلا الجانبين، يُذكرني شكله المثلث برقبة مصارع السومو المليئة بالعضلات.

أسأل: «ما هذا؟».

«يوتاي-سان». ترد كونيكو: «جبل فوجي بهوكايدو».

تغدو الألوان أكثر وضوحًا كلما اقتربنا، مثل ضربات فرشاة الرسم، لكن أبعاد الجبل لا يبدو إلا أنها تكبر، ليصبح أكثر ابتعادًا، وعاليًا على نحو مستحيل لا يمكن بلوغه.

«يوتاي-سان» أكرر الكلمة الجديدة وأنا أتذوقها.

تومئ كونيكو قبل أن تدس قطعة حلوى بونبون في فم زوجها.

نصل إلى بيت آل تاتينو -الذي يشعر تاتينو-سان بأنه الأكثر فخرًا في العالم بامتلاكه- في وقت متأخر جدًا بعد الظهر، هو أكبر من أي بيت آخر رأيته في اليابان، به ثلاثة طوابق، ثلاث حجرات نوم، حمّامان، وكذلك حجرة لصناعة الشعرية ومساحة عرض لمجموعة الساكي المنزلية الهائلة التي يمتلكها تاتينو-سان؛ الجدران والطوابق مصنوعة من خشب صنوبر ذهبي متين مستورد من كندا، ثمة موقد حطب يقف بمحاذاة الحائط المواجه للشرق، مالئًا الحجرات ذات السقوف العالية بدفء مُطقطق، والنوافذ الكبيرة تسمح بدخول مساحات من الضوء الشمالي الباهت، تؤطر بكرم مشاهد من الحقول وسماء آخر الصيف، بالنسبة لشخص قضى العام الماضي محبوسًا في كتلة خرسانية، يسير في شوارع منسوجة بالكابلات الكهربائية مثل شرانق من الأسلاك، فإن البيت بمثابة وحي وإلهام. فجأة، لديّ حرية الحركة والتمدد وأن أكون وحدي؛ ولديّ ترف النظر من نافذتين مختلفتين ورؤية منظرين مختلفين، بعيدًا عن قطارات الركاب بصريرها وجلجلاتها ومكبرات صوتها، يهدأ عقلي وأبدأ في التفكير بحرية من جديد، تغدو حجرات عقلي مشابهة لحجرات البيت الساكنة والهادئة، مستعدة لاستقبال انطباعات وأفكار جديدة.

أكتشف أن يوتاي-سان يمكن أن يُرى من أي مكان تقريبًا في نيسيكو،

لكن نافذة مطبخ بيت آل تاتينو توفر البانوراما النموذجية، يُحيِّيني الجبل كل صباح وكل مساء؛ فهو أول شيء أراه عندما أغادر البيت وآخر شيء أراه عندما أغلق الباب الأمامي عند الغسق. أراقب الجبل –كيف ينتقل من الظل إلى الضوء، من الضباب والمطر إلى الوضوح الحاد– والجبل يراقبني في غدواتي وروحاتي؛ ظله يغطي طريقي، وحضوره يوجه خطواتي، يصدف -أيضًا- أن نافذة المطبخ تواجه الشرق. يُذكرني هذا بالسكان الأصليين لهوكايدو: الآينو، بالنسبة لهم النافذة الشرقية مقدسة؛ لأنها النافذة التي تطل على الآلهة، هناك يقدم الآينو القرابين طوال اليوم، الساكي ونشارة الخشب للزينة: *الإيناو*. لسوء الحظ، ومع تناولي الإفطار أمام هذه النافذة المقدسة كل صباح، لم يكن لديّ شيء أقدمه كقربان للجبل غير بقايا من حبات الأرز وقطرات من حساء الميسو.

إيمان الآينو بأن العالم مأهول بآلهة كثيرة هو استجابة طبيعية لهذه المناظر الطبيعية، لبريَّة هذه الجزيرة من الغابات والمستنقعات والجبال والدببة والذئاب، آلهة الآينو ليست معبودات مجردة، بل شخصيات قوية لها أصواتها الخاصة، أكثر شبهًا بآرييل وكاليبان(2) من جايا أو أمنا الأرض، إنهم حتى قادرون على حكي قصصهم الخاصة، مثل (حكاية الإله الثعلب) الذي يخطئ في التعرف على حوت ألقته المياه إلى الشاطئ ويظنه كومة من براز الكلاب، أو (حكاية الإلهة البومة) التي تحول كوخًا إلى بيت من الذهب والجواهر. يوتاي-سان إله مثلهما، وبالمثل له صوته وحكاياته الخرافية. تتغير تعبيراته يوميا، ويهيمن مزاجه على المنطقة المحيطة. تحدد كونيكو خريطة تغير الفصول عبر منحدراته. «هل يمكننا رؤيته اليوم؟ هل هو أخضر أم بُنيّ؟ في الظل أم في ضوء الشمس؟» وكأن جانب الجبل بارومتر

يخبرها إن كانت ستمطر أم لا، أم إن كانت الشمس التي تطل من خلف كتفه ستمنح النهار سماء زرقاء، هو -أيضًا- تقويم للفصول، فلون منحدراته هو ما يحدد إن كان الوقت شتاء أم ربيعًا أم صيفًا أم خريفًا، وقمته، تلك التي هي أقرب شيء إلى السماء، على مبعدة بضعة أسابيع من وادي نيسيكو، وأي صورة التقطت منذ سنوات يمكن دائمًا تأريخها وفقًا لثوب يوتاي-سان الأخضر أو الأحمر أو الأبيض.

مثل كل الجبال الأعلى في اليابان، يتم تعريف جبل يوتاي بلقب «سان»، وهي كلمة مخاطبة تعني شيئًا يشبه «مستر» أو «مِس» في الإنجليزية، كان الاسم الأصلي للجبل (إيزو فوجي)، وكان إيزو هو الاسم القديم لجزيرة هوكايدو، وكتابته تحمل شكلًا مميزًا مشابهًا لفوجي؛ القمة المسطحة مقطوعة الرأس ذات الكتفين المنحدرين، كجذع شجرة ناتئ من الأرض، في آخر الخريف، تتغطى القمة بنثار الجليد، مذكرة بالصور الأيقونية لفوجي، ومثل فوجي، تجتذب السياح الذين يقفون في مناطق مشاهدة معينة ليلتقطوا الصور، كما يجذب يوتاي-سان المشائين أيضًا، لكن -مقارنة بفوجي- فإن الاهتمام بتسلقه ليس عظيمًا، فجوانبه عبارة عن انحدار دائم خالص، الجبل في أغلبه صخور بركانية مغطاة بالطحالب وأوراق الراوند البري، لا تمنح المشائين إلا القليل من الجمال النباتي، وفي الشتاء، يتغطى الجبل بالجليد، وفي حالات الضباب أو العواصف الثلجية، يتلاشى الجبل مختفيًا في سحابة بيضاء، حتى لربما لا تعرف أبدًا أنه كان موجودًا ذات يوم، ومن وقت لآخر يجتذب المتزلجين الشجعان بعيدًا عن مناطق التزلج الممهدة، أخبرتني امرأة قابلتها من أهل المنطقة وكانت قد تزلجت على يوتاي: «*تستطيعين* التزلج عليه. هذا ممكن. لكني لن أفعل هذا مرة أخرى».

من المعروف عن فوجي-سان أنه جبل خجول، عرضة للاختفاء في سحابة في أي لحظة، لكن بالنسبة لي، يوتاي-سان هو الأكثر نأيًا، الأكثر غموضًا في الاثنين، هو لا يحب أن يقوم أحد بتسلقه، أو رسمه، أو مدحه في قصائد الهايكو والتانكا. هو لا يرحب بالزائرين؛ فمناخه ليس دافئًا أو صالحًا للسكنى مثل مناخ فوجي، ليس به محل لبيع الرامِن(3) ولا ماكينة نقود بطول دروبه، على سبيل المثال، وليس به باعة ماء ينتظرون عند قمته، يوتاي-سان سُلالة مختلفة من الجبال، رجل عجوز عابس صارم، له وجه مصنوع من صخور الأنديزيت والداسيت البركانية، وقبة من الرواسب الغاضبة ترتجف في معدته، هو من بين أشهر مئة جبل في اليابان، لكنه ليس بين الجبال الأعلى، بارتفاع 1.898 مترًا فقط، يمثل يوتاي-سان نصف حجم جبل فوجي، وطبيعته المتأملة الكئيبة أشبه بتجهم رجل قصير.

مثلما هي الحال مع فوجي، هناك لوحات رُسمت وقصائد كُتبت عن يوتاي-سان، لكنها أقل وأحدث، فبينما كان من السهل الوصول إلى فوجي وبحيراته بالنسبة للفنانين والشعراء الراغبين في الهروب من المدينة، لا يمكن قول نفس الشيء عن يوتاي. وهوكايدو، أو جزيرة إيزو كما كانت تُعرف في البداية، هي ريف غرائبي ناءٍ: سيبيريا اليابان. بنوا بها أول سجن. جاء إليه الرجال المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ليقضوا فترات عقوباتهم الطويلة في الشمال غير المضياف، يشقون السكك الحديدية ويعزقون الأرض، كانت إيزو مرادفة للثلج والجليد؛ سهل مشجر زاخر بالذئاب والدببة، ونتيجة لهذا النأي، لم تُمنح هويتها اليابانية إلا منذ مئة وخمسين عامًا. مارست الحكومة المركزية بنشاط سياسة استعمار وهجرة في ستينيات القرن التاسع عشر عندما جعلها قرب الجزيرة الشمالية من روسيا عرضة للهجوم، وفي سبعينيات

القرن التاسع عشر، تضاعف عدد السكان ثلاث مرات، مع انتقال آلاف اليابانيين شمالًا بفضل حوافز الحكومة المالية، وفي عام 1869، أصبح الريف المسمى بإيزو «هوكايدو»، وجرى تقسيم الأرض وفقًا للنظام الياباني إلى ولايات ومحافظات ومقاطعات وأحياء، ونُسبت إليها أسماء أماكن يابانية اعتباطية؛ هذه الأسماء إما تضمنت أو حاكت أو أفسدت أو نبذت أسماء المواقع الجغرافية الأصلية للآينو.

يوتاي أو 羊蹄 هو مجرد تسمية اعتباطية على هذه الشاكلة، كان الاسم الآينو الأصلي هو ماكاري نوبوري أو الجبل المحاط بنهر، الحروف الساكنة والإيقاع السريع لمقاطع كلمات الآينو تناسب الجبل أكثر بكثير من «يوتاي» المتثائبة والأكثر نعومة. يشير الوصف المتضمن في الاسم الآينو إلى أناس على ألفة بالجبل وما يحيط به من طبيعة. على الناحية الأخرى، فإن المعنى الياباني لكلمة «يوتاي»: «حافر الخروف» يوحي بعملية مسح سريعة للمنطقة، لعله رسام خرائط ياباني جاء وتطلع إلى الواجهة الصخرية وشكلها المميز، ووصف ما رآه دون أن يستكشف منحدراته، بالضبط مثلما كان الجبل -لوقت طويل قبل ذلك- معروفًا ببساطة على أنه إيزو فوجي - أو فوجي الخاص بهوكايدو- كما لو أنه نسخة أدنى من أشهر جبال اليابان. إنه مثال لكيف كان -وما زال- يجري تعريف هوكايدو نسبةً إلى كتلة اليابس الأساسية، وكأنها ليست إلا تقليدًا باهتًا للمركز الحقيقي للثقافة، الذي يسكن في العاصمتين، كيوتو وطوكيو، على بُعد مئات الأميال إلى الغرب.

يوتاي -حافر الخروف- كلمة تصف الفلق الحافري للقمة، اسم وضعه دارسون لأسماء الأماكن انشغلوا بغرابة شكل الجبل، لكنهم لم يقتنعوا بجماله، لو أن هوكايدو هي الطرف الضعيف وغير الجوهري

في جسد اليابان، فإن يوتاي هو الحافر، بانتباذه بعيدًا هكذا عن قلب الثقافة اليابانية الراقية التقليدية، فإنه قلّما يُعتبر جزءًا من ذلك الجسد على الإطلاق، فحافر الخروف ليس مصنوعًا من اللحم أو العضل؛ هو لا يحتوي على أي دم أو أعصاب، ومثله مثل الظفر البشري، يمكن قصه وإزالته. الحافر إذن هو تعبير عن الحدِّية، عن الاقتراب الخطر من أن تصبح منفصلًا، جامدًا، جسدًا أجنبيًا. على الناحية الأخرى، لا تشمل «ماكاري نوبوري» أي تصورات عن المركز أو المحيط، هذه المفاهيم لا تدخل في لغة لم يكن بها حتى أي كلمة تخص هوكايدو الجزيرة. إن خصائص لغة الآينو تعني أن أي كلمة يمكن تقطيعها إلى أنصاف كلمات أو مقاطع تحتوي في حد ذاتها على معانٍ أخرى، لذا فإن «ماكاري» هي كلمة مركبة من «ماك-كاري»، حيث تحتوي «كاري» على معنى «الإحاطة» أو «تطويق» الجبل أو «نوبوري». صورة نهر يطوق جبلًا تستحضر شاعرًا جوالًا بعض الشيء، شخصًا على شاكلة ووردزورث، يدور حول الجبل بخطواته، ويحفظ هذه الخطوات في قطعة من الشعر المُتغني بأسماء الأماكن، الصورة دائرة؛ صورة للكلية، للاحتواء، على النقيض تمامًا من الكعب الفظ القاسي لكلمة «يوتاي».

في هوكايدو، إيزو سابقًا، هناك عدد لا يُحصى من مثل هذه الترجمات والترجمات الخاطئة، بَكَرة ضخمة من الأسماء، الثنائية والثلاثية، تُترجَم أو تجري دبلجتها، نيسيكو نفسها تُكتب بخط كاتاكانا الياباني المقطعي -وهو شكل من الكتابة يُستخدم للكلمات الأجنبية والمستوردة- وهو دليل على حقيقة أن نيسيكو كلمة بلغة الآينو، وليست يابانية، ومع ذلك، فإن المقاطعة التي تقع فيها نيسيكو تُدعى شيريبيشي: وهو اسم ياباني، يُرسم بحروف الكانجي، ثمة أسماء عديدة تشهد على تاريخ الناس الذين عاشوا هناك، ومثل طبقات موقع

أثري، يمكن القيام بحفر كل اسم ليكشف عن اسم أقدم أسفله، ومثل شقفات الخزف في التربة، عند الكشف عن أي اسم وفحصه؛ يمكن أن يكون دليلًا على تاريخ المنطقة، وثقافاتها الغابرة.

الاسم الياباني «حافر الخروف»، يعكس إزاحة المنطقة بعيدًا عن كتلة اليابس الأساسية بطرق أخرى، هوكايدو معروفة كريف زراعي، مشهورة بالجبن واللبن، بالأطعمة التي لا تُنتَج في أي مكان آخر في اليابان، وكما تقول آن ب. آيريش في كتابها (هوكايدو): «هي أرض طبيعية غير يابانية». هونشو، الجزيرة الأساسية، لديها امتياز في ما يتعلق بالمساحة، لكن هوكايدو لديها الكثير والكثير. في نيسيكو، تمتد المزارع لأميال وأميال، محتشدة بالحصّادات والمحاريث ذات التكنولوجيا العالية، ومكسوة بالصوب الزراعية. منزل آل تاتينو ضخم لأنه توجد مساحة كافية لبنائه، وحرية كافية للتحرك إلى أعلى وإلى أسفل وإلى الجوانب، بينما في طوكيو لا توجد غالبًا مساحة كافية من أجل سرير في الشقة، في البيت المجاور لآل تاتينو تعيش أختان، تتمتعان كذلك بتقاعد مبكر، تمتلكان نعجة كحيوان أليف، والنعجة السمينة والبطيئة والضَّجِرة من وجودها وحيدة، تعيش في الحديقة خلف بيتهما، تخبُّ هنا وهناك، وترقبني بعينيها البصليتين وأنا أمر، ينبح كلاب الجيران عندما أقترب، لكن النعجة تقف في الممشى المكسو بالحصى، قبالة الجبل الذي يحمل اسمها، متسائلةً ربما كيف حدث وأن جاءت إلى هنا.

في ذاك المساء الأول، نجلس إلى العشاء في الساعة الخامسة. نأكل جالسين على الأرضية، والسيقان ممدودة أسفل المائدة، والتليفزيون مفتوح كي يلطف من سكون الريف، تطل نوافذ حجرة المعيشة على الطريق ذي الحارة الواحدة، وحديقة خضراوات الجيران، وبالطبع

على يوتاي-سان. تجلس هانا على الكرسي الأسود ذي الذراعين الأقرب إلى النافذة، كما لو أنها تتأمل الجبل. (في الواقع، هي ترقب الطريق بحثًا عن زملائها من الكلاب أو عن أي مُتعدِّين). عندما تذهب كونيكو -أكثر شخص تحبه هانا في العالم- إلى المحلات، تضع هانا كفيها البيضاوتين على أعلى الكرسي ذي الذراعين وتمسح الطريق بعصبية في انتظار عودتها، كونيكو بدورها تحب هانا بشغف كذلك، ورغم أنها تسخر من جيرانها الذين «يفسدون» حيواناتهم الأليفة بتدليلها، فإن كونيكو تدعو هانا إليها كل ليلة لتتفحص فمها الوردي وتمسد كفيها.

«هي بحاجة لقص أظافرها. إنها تكره ذلك. في آخر مرة قَصُّوا فيها أظافرها أقصر من اللازم بكثير وتألمت..» تفسر، وتضيف ملتفتة إلى هانا: «أليس هذا صحيحًا؟».

هانا هجين بين كلب صيد هوكايدي وشيء آخر، ومثل كل الكلاب لديها خصالها الغريبة، فهي لا تنبح أو تُصدر أي ضوضاء على الإطلاق، لا تقفز ولا تجري ولا تلعق، وفراؤها أبيض تمامًا، كأنها شبح، وكونيكو أكثر حساسية بكثير من أن تقلق بشأن كلب، فالأشياء والناس الذين تحبهم، تحبهم بشدة؛ مثلما يحب مدرس صارم طالبًا جيدًا، وهي توبخ زوجها لكونه زائد الوزن (وهو ليس كذلك)، على أكله الحلوى أكثر من اللازم، على كونه عنيدًا ومفرط الالتزام بعمله (وهو كذلك)، وهي تشكو عندما يترك جواربه على الأرضية، وعندما يتردد صدى شخيره في جنبات البيت ليلًا، ورغم شكاواها، فإن زوجها هو محور حياتها، كل شيء تفعله هو من أجله، وعندما يذهب إلى العمل في الصباح، تبقى هي منتظرة أن يرن الهاتف حتى تتمكن من تسجيل رسائله، وتعد الغداء من أجله عندما يعود، وهي تقوم بالغسيل من أجله، وتُبقي البيت نظيفًا وأنيقًا. التقيا في شركة الاتصالات التي كان يعمل بها

كلاهما خلال سنوات الرخاء في السبعينيات والثمانينيات. كان تاتينو-سان مديرًا كبيرًا وكانت كونيكو تعمل في مركز الاتصال، تقاعدا مبكرًا وذهبا إلى الريف، إلى أبعد ما يمكنهما عن التزاماتهما الحضرية.

هي امرأة ضئيلة، حتى بالمقاييس اليابانية، تحكي لي قصصًا عن إقامتها في نيويورك كطالبة، وكيف كان كل شيء ضخمًا، الضخامة الباعثة على الجنون للمباني والشوارع وأطباق الطعام. أحيانًا، كما تزعم، لم تتمكن حتى من الجلوس على مقعد المرحاض، ويضاعف من ضآلتها شعرها الأسود القصير، المقصوص في عقصة مستديرة، ووجهها المستدير ونظاراتها المستديرة، أزرار فوق أزرار، لها أسلوب قلق، دائمًا ما تقوم وتقعد؛ وتسير بسرعة، وساقاها ترفّان كي تلاحق زوجها، تقرأ الجريدة مع نفسها في عزلة الضحى، بالنسبة لي بيابانيتي العرجاء، تبدو كونيكو جافة ومتباعدة مع الغرباء، لكنها دومًا على وشك الرغبة في قول شيء ما، بيد أنها تقرر ألا تقوله.

يخلع تاتينو-سان جواربه ويلقي بها خلف الأريكة، تتشكى كونيكو، يغلق عينيه ويبدأ في الشخير. هو رجل متين البنيان، له عينان زرقاوان كبيرتان ووجه مربع حاد أقرب إلى أن يكون غربيًا، أغلب الوقت يكون تعبيره متوترًا، كما لو أن أفكاره مشغولة بعملية حساب ذهنية، ومع ذلك لديه الطاقة اللازمة لأن يدهش فجأة هؤلاء المحيطين به بتفجرات من الطاقة؛ قافزًا وخارجًا من البيت عدوًا، واثبًا عبر الباب، ضاحكًا على تورية ما، يقضي كثيرًا من وقت فراغه في لعب الجولف، وبعدها يذهب إلى (الأونسن)(4) مع رفاقه. في الأيام الصعبة، يذهب مباشرةً إلى الأونسن -أحيانًا يأخذني معه- ليسترخي ويتحرر من مشاغله في الينابيع الحارة. في *الإيزاكايا* (نوع من الحانات) يطلب المشروبات لي ولكونيكو، وهو تصرف متوقع

من الرجال اليابانيين، وفي الوقت نفسه الذي يكون فيه منخرطًا في السياسة المحلية والأنشطة المجتمعية، يمكنه أن يكون متحفظًا على نحو مدهش، وبمجرد أن تدق الساعة التاسعة، يأوي إلى الفراش، في حفل *سايونارا* (وداع) أقامه لي آل تاتينو عند نهاية «إقامتي»، بقي الجيران لوقت متأخر عما هو متوقع، جالسين حول الطاولة في الدور الأرضي، يتحدثون ويشربون، كان الجميع ثملين، ولم يبدُ أن أي أحد مستعد للمغادرة حتى نزل تاتينو-سان إلى الدور الأرضي مرتديًا بيجامته ذات الخطوط الزرقاء وقال تصبحون على خير.

بعد مساعدة كونيكو في غسيل الأطباق، والاهتمام بهانا لبعض الوقت، آوي إلى فراشي. تاتينو-سان نائم بالفعل وشخيره يدوي في أنحاء البيت، يمكنني سماع صوت قطع أثاث تُدفع جانبًا، وقعقعة الأواني: ترتيب كونيكو للبيت آخر الليل، في حجرة نومي، هناك بضع مطبوعات وملصقات معلقة على الجدران، إحداها تُظهر يوتاي-سان مشتعلًا باللونين الذهبي والأصفر، تبدو أقرب إلى سيرة قديس في العصور الوسطى من كونها لوحة حداثية، وعندما أنظر عن قرب أكبر، ألمح –في قاعدتها بالضبط– تنقيطات باللونين القرمزي والبُنيّ، تمت إضافتها بلا مبالاة، بعد لحظة، أدرك أن هذه البقع هي الناس، القرويون من نيسيكو، الذين يعيشون في ظله.

---

(1)- الآينو: السكان الأصليون لليابان قبل وفود أسلاف اليابانيين من البر الصيني، تراجع وجودهم في مختلف الجزر اليابانية باستثناء هوكايدو حيث ما زال وجودهم وتأثيرهم باقيًا فيها. (المترجم)

(2)- من شخصيات مسرحية العاصفة آخر مسرحيات شكسبير، آرييل وهي روح

تعمل في خدمة الساحر بروسبيرو،أما كاليبان فهو نصف إنسان ونصف وحش وابن الساحرة سيكوراكس ويعمل -أيضًا- في خدمة بروسبيرو. (المترجم)

(3)- الرامن هو طبق ذو شعبية كبيرة في اليابان وهو عبارة عن حساء الشعرية مع مرق اللحم أو السمك ويكون بطعم صلصة الصويا أو الميسو، وتضاف إليه شرائح من لحم الدجاج أو الخنزير أو طحالب البحر المجففة أو البصل الأخضر أو الذرة. تختلف طرق التحضير من منطقة إلى أخرى لكن الأكلة موجودة في كل مناطق اليابان تقريبًا ويمكن شراؤها عن طريق آلات البيع هناك. (المترجم)

(4)- حمامات عامة في اليابان بها ينابيع من الماء الساخن. (المترجم)

2

الدرب

رياح الخريف -

秋風やむしりたがりし赤い花

الزهور الحمراء التي أرادت

أن تقطفها.

كوباياشي إيسا

غالبًا ما نسير معًا، آل تاتينو، والجيران، وأنا، عبر المنحدرات الهينة ووديان نيسيكو-تشو، لكن هذا اليوم مختلف، فنحن اليوم نتسلق الجبل، إنه يوم سبت مشرق لطيف الجو، تستيقظ كونيكو في السادسة لتجهز الإفطار ووجبات الغداء المعبأة لمسيرتنا، دواليب المطبخ مليئة بأشياء معبأة وملفوفة وموزونة بعناية في أوعية بلاستيكية، يغلي حساء الميسو ببطء على الموقد، استوى الأرز؛ ينفث البوتاجاز أعمدة من البخار الأبيض في الهواء، يرن منبه البيض عند أربع دقائق بالنسبة لكونيكو، وخمس لزوجها، الرداء المنزلي مربوط مرتين على وسطها حتى لا يكون هناك أي احتمال بخطر انزلاقه، لقد قطّعت بالفعل الكمثرى والكاكي لأجل الغداء، والآن هي تُكوّر في يديها الأرز الطازج بالبخار، وتلف *الأونيجيري* (كرات الأرز) في النوري (أعشاب بحرية مجففة) وورق التغليف البلاستيكي الشفاف، ملتقطةً قطعًا من الزنجبيل الوردي بعصيّ طبخ طويلة.

على الثلاجة معلقة مفكرة بالـ 旬 أو (شون)؛ أطعمة الموسم، ليس لأن كونيكو بحاجة لتذكير، لو أنه الربيع، الذي يمكنها تمييزه بالتورد

الدافئ على منحدرات يوتاي، تعرف أنها يجب أن تشتري الجمبري، ولو أنه الصيف، الذي يمكنها تمييزه بخضرته الرائقة، تعرف كونيكو أنها يجب أن تطهو شعرية الصوبا (الحنطة السوداء) التي يجلبها لها أصدقاؤها في الصيف من العاصمة، ولو أنه الشتاء، والثلج يتمدد سميكًا وأبيض، فلا بدَّ أن تجهز *الأودن*، حساء كعك السمك، لزوجها عند عودته من منحدرات التزلج. نحن الآن في الأسبوع الأخير من سبتمبر وكونيكو تنتظر زائرًا جديدًا؛ تنتظر الخريف، يتطلب الخريف ثمرات الكاكي، ومكسرات الجنكة، وقرع العسل، والأودون (الشعرية الثخينة من دقيق القمح)، وعيد رؤية القمر. إنه الوقت الذي يخرج فيه تاتينو-سان للبحث عن عش الغراب في غابة الأشجار خلف البيت، مدهشًا زوجته التي لا تعرف ماذا تفعل به، كل يوم، تراقب يوتاي-سان بحثًا عن علامات وصول الخريف، سطح الجبل أشبه بصفحة بيضاء يترك عليها كلَّ شهر وكلَّ أسبوع وكلَّ يوم توقيعًا، ورغم أن الكتابة قد تتغير، إلا أن الصفحة تبقى؛ بالضبط كما يبقى البحر، حتى مع ارتفاع الأمواج وانخفاضها.

بالفعل، هي مسرورة لرؤية غبرة من اللون الأحمر على حافة منحدراته.

عندما نصل إلى سفح يوتاي، نجد الجو وقد تحول إلى الأسوأ؛ الريح تهب بعنف، والهواء بارد حد التجمد، الجو بأكمله كئيب مع تساقط الرذاذ، النسوة الأكبر سنًا يقبضن على عصيّ سيرهن بإحكام في الكفوف المغطاة بالقفازات، يجذب تاتينو-سان قبعته لأسفل فوق أذنيه ويسير إلى الأمام، بسرعة وتصميم، وفي لحظة، كان قد تلاشى خلف الآجام، وهانا البيضاء الصغيرة الحجم تعدو في عقبيه، وكونيكو وصديقتها تسيران وتثرثران معًا، تتشابك ذراعاهما أحيانًا،

وأحيانًا لا، مستعدتان لمساعدة إحداهما الأخرى في تسلق المنحدرات الصخرية، تمطر خفيفًا؛ وثمة ضباب رقيق مبلل، يعج منحدر التل بنباتات السرخس، وأوراقه المطاطية العريضة تخبط في ساقيَّ، لكننا بعد ساعة أو نحوها، نصل إلى منحدرات جرداء، لا شيء غير الحصى والطحالب الإسفنجية والتراب تحت الأقدام، تضربنا الريح بقوة بينما نشق طريقنا قُدُمًا.

«هل يعجبك هذا؟» يسأل تاتينو-سان عندما نتوقف لنلقي نظرة على الوادي، أقول إنه يعجبني. «هناك درب يمتد من هنا إلى الساحل، إلى هاكوداتِه، بطول الطريق جنوبًا إلى البر الأساسي، يستغرق أربعة أيام».

يمكنني تمييز درب طويل ضيق، يصعد ويهبط التلال، ليس دربًا بقدر ما هو حَزٌّ في الخُضرة، يمضي رويدًا نحو الأفق. أحلم بالسير فيه، في الطريق كله، بطول الطريق إلى البحر، إلى اليابسة، إلى هيروشيما في الجنوب.

شجيرات الإيلكس الياباني، شجيرات الروان، شجيرات عنب القط، خاتم سليمان، توت الخزف، المشهد منقوع في الخضرة ومُرقَّط بالحُمرة. المشهد ويلزي تقريبًا بألوانه الهادئة المخضلة، لكنه في الوقت نفسه مختلف بوضوح، زارتني في طوكيو صديقة أمريكية -بستانية وعاشقة للنباتات- وفي الحديقة العامة ذات يوم أشارت إلى أن الشجيرات التي كنت أمر بها يوميًا في الطريق إلى العمل كانت جديدة تمامًا عليها، وجدث شيئًا فاتنًا في شكلها الواطئ المُعذَّب، بالنسبة لي، كانت تلك النباتات مجرد سياج، لكن رد فعلها ذهب نوعًا ما نحو تفسير الشعور بالغربة الذي كنت أحس به، فرغم أن الشجيرات الخضراء، والأشجار النفضية، والزهور الحمراء بدت مشابهة للريف الذي كنت معتادة عليه؛ إلا أنها في الحقيقة كانت غريبة كليةً عليَّ طوال الوقت،

وكان الاختلاف ماكرًا للغاية حتى أني لم ألاحظه، كان أشبه بمشاهدة لوحة من زاوية أخرى، أو مقابلة شخص لأول مرة والشعور بالصدمة لوجود تشابهات بينه وبين صديق قديم.

تتخلل يوتاي زهور لا يمكن العثور عليها إلا في الارتفاعات العالية، الزهور التي تنمو في مرتفعات الصين والهيمالايا، نباتات شتوية قادرة على الصمود أمام الثلوج هنا وفي (سخالين) والجزر المتنازع عليها بين روسيا واليابان، مثل زهور الجنتيانا في جبال الألب، هذه الزهور -الجريس الجبلي وزنبق النهار- بعيدة عما قد تتخيله من كونها نباتات قوية قادرة على النجاة بحياتها، فهي هشة وشبيهة بالأحجار الكريمة، ألوانها زرقاء وبيضاء وصفراء، شاحبة كالزجاج، كثير منها له رؤوس أجراس، تتمايل فوق سيقان رفيعة. لديّ رغبة في قطف هذه الزهور، وجمعها وضغطها في ورق يدوي الصنع؛ وختمها بإحكام داخل بطاقات بريدية ودفاتر يوميات، في إبقائها آمنة من سقوط الثلج والجو العاصف، أتخيل الكتابة حول هذه البتلات، تاركة قلمي ينزلق حول طيات الورق.

نقابل سائرين آخرين، قلة منهم يعدون، مرتدين ثيابًا رياضية سوداء من قماش الليكرا، صغار وكبار. يعدون صاعدين وهابطين وصاعدين مرة أخرى في الوقت الذي نستغرقه للوصول إلى القمة، يعجب بهم تاتينو-سان، لكني أجد حماسهم الرياضي المتطرف مزعجًا بعض الشيء، هناك جماعات أخرى أيضًا؛ فتيات مراهقات، مرتديات ملابس جديدة من أجل المناسبة، يتسلقن الدرب بصعوبة في جماعات من أربع وخمس فتيات.

«ياما جارو» يفسر تاتينو-سان. فتيات الجبل.

المشي الجبلي موضة حاليًا وسط المراهقات، حيث تشد جماعات

الصديقات الرحال لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في تسلق الجبال، ولديهن زيّ موحد حتى يمكن التعرف عليهن كجزء من جماعة (ياما جارو)، شورتات فوق كولونات ملونة، وجوارب وأحذية ثقيلة ماركة دكتور مارتينز، سترات مبطنة باللون الوردي أو الأرجواني، ويقبضن على حقيبة الأدوات، يسرن ببطء، مثرثرات وضاحكات، يقلن مرة بعد مرة كم الريح باردة أو كم المنحدر مائل.

لستُ من الياما جارو؛ لستُ جزءًا من تلك الجماعة من الفتيات، أسير خلف تاتينو-سان بقليل وأمام كونيكو وصديقتها ببضع خطوات، وحيدة تقريبًا، أشعر وكأني عنصر أجنبي سقط من السماء، يرمقني العداؤون من فوق أكتافهم، تضحك الفتيات. «من أين هي؟» يتساءلن هامسات، والغرباء ينظرون إليّ، يُقيّمونني، شاعرين بالفضول لمعرفة ماذا أفعل هنا، بعد ذلك، عند الاستقرار بأمان في عيون المياه الحارة، تكون النساء طيبات بما يكفي لعدم التحديق فيّ وأنا أخلع ملابسي وأدخل إلى البركة بجوارهن. يتحدثن عن الجو؛ عن التحول في درجة الحرارة، يبرد المطر الخفيف على كتفيّ العاريتين، لا أعرف لماذا، لكن الأونسن هو أكثر مكان أشعر فيه أني على راحتي في هوكايدو، حتى بالرغم من أني عارية وجسدي الأجنبي مجرد للجميع كي يرونه، إلا أنه مكان أهدأ وأكثر خصوصية؛ حيث تمضي النساء في شأنهن بالاغتسال والاسترخاء، تكون فتيات الياما جارو هناك أيضًا، مجردات من زيهن الموحد، يبدون أكبر عمرًا، وأكثر ثقة بالذات، وجوههن متوردة من البخار، والمناشف البيضاء متوازنة بجمال على شعورهن السوداء، لا يسألنني من أين أنا، وأشعر بالامتنان لذلك.

بعد الاستحمام، نذهب ونجلس في حجرات الاسترخاء، حُصُر التاتامي مرتبة أسفل موائد منخفضة؛ وتتشارك العائلات أوعية الشاي،

ننضم إليهم، ونفتح عُلبنا التي بها كرات الأرز الملفوفة في *النوري*، والكمثرى المخللة، يتمدد تاتينو-سان في الركن ويسقط نائمًا، منفجرًا في نوبات من الشخير العالي، جارتنا، وهي امرأة عجوز ضئيلة بعينين باسمتين، تبدأ في الضحك، تبدو كونيكو محرجة أكثر من كونها متسلية.

ثم نجفل من ضوضاء ليست هي شخير تاتينو-سان، تتصاعد فوق رؤوسنا مثل ذبابة تطنّ قرب الأذن.

تقول كونيكو: «إنها تمطر، مطر ثقيل فعلًا من صوته».

تقول جارتها موافقة: «لقد أصبح الجو باردًا للغاية مؤخرًا، والمطر فظيع».

ننصت إليه لفترة، تختلط أصوات الشخير الرقيقة والمطر المدمدم معًا في همهمة ناعسة، حتى نصير نحن الباقين الوحيدين في حجرات التاتامي، نور الشمس يخبو، والألوان تشبه الخامة الحُبيبية لفيلم قديم، تذكرني بفيلم قصة طوكيو للمخرج ياسوجيرو أوزو: تدور أحداث الفيلم الذي أُنتج في خمسينيات القرن العشرين في حجرات من حصير القصب مثل تلك التي نجلس فيها، تم تصوير الفيلم من ارتفاع وسط الإنسان بغرض اقتناص حميمية البيوت اليابانية، في أحد المشاهد، يركع رجل متقاعد وامرأة جنبًا إلى جنب خلف باب من السلك، يشاهدان المطر معًا، ويتحدثان عنه في حوار ساحر يكرر ويكرر: «تمطر، أليس كذلك؟ ثقيل، أليس كذلك؟ تمطر. ما زالت تمطر. لكم ستظل تمطر؟ أنصت إلى المطر».

تقول كونيكو: «تمطر. دائمًا تمطر. يبدو وكأنها لن تتوقف أبدًا».

«فقط أنصتي إليه! ستغرق الطرق».

«*إيمي-يون*». تقول كونيكو مبتسمة. «فتاة المطر. لم نشهد أبدًا كل هذا المطر قبل أن تأتي. المطر يتبعك أينما ذهبتِ».

«حسنًا، أنا من ويلز».

«إذن، هل تمطر كثيرًا في بلدك؟» تسأل الجارة.

يستيقظ تاتينو-سان، وينقلب على ظهره، عيناه مفتوحتان على اتساعهما وكأنه قد تذكر شيئًا مُلِحًّا.

يهتف: «هل يمكنكم سماع هذا؟».

«إنه المطر فقط..». تقول كونيكو-سان بأسلوبها المباشر: «عد إلى النوم».

أنهض لأفرد ساقي، يغدو الجو فجأة دافئًا على نحو غير محتمل في الحجرة، تصعد الحرارة إلى وجهي وكأني عدت إلى الأونسن، أفتح النافذة وأسندها بدعامتها، تاركة الهواء اللطيف يتدفق داخلًا، وأشعر بغشاوة ندية على جلدي، السماء بيضاء لكن المطر قد كسر السحب المنخفضة وأضفى حلاوة على المنظر، جاعلًا إياه يلمع، أتتبع الطريق إلى نقطة يتلاشى فيها داخل الأحراش؛ يمكنني رؤية نقاط سوداء في السماء حيث تكافح الطيور ضد الرياح، وأرى يوتاي-سان، بالطبع، وقد جعله المطر أغمق، يُذكرني بحاشية رداء كيمونو، حاشية حريرية منقوعة في ماء المطر.

كونيكو-سان واقفة إلى جواري، أشم عطرها، إنه نفس العطر الذي يكون في الحمَّام ليلًا بعد أن تستحم، وفجأة، أتذكر زجاجات العطور التي صفَّتها أمي على الرف بجوار النافذة، زجاجة العطر التي يعطيها إياها أبي كل عيد ميلاد؛ عيد الميلاد الذي فاتني العام الماضي وسيفوتني مرة أخرى هذا العام، فجأة، أرتعب من أني ربما أبكي.

«كويو». تقول وهي تشير إلى الجبل. «ألوان الخريف».

أنظر مرة أخرى، أكثر حرصًا هذه المرة، وأرى المسحة الحمراء على النسيج بالكاد يمكن تمييزها من الخلفية الخضراء المزرقة.

تقول: «جاء الخريف..».

يبتعد الحنين إلى الوطن، تتطلع إليّ، ونظارتها على طرف أنفها، أشعر بالقلق أن تكون قد لاحظت تعاستي، لكنها فقط تقول: «تعرفين، سيصبح أكثر جمالًا من هذا. فقط انتظري وسترين».

3

كويو

أولًا عصا الحبر الهندي، الأسود كليلنا الداخلي؛

تحكها، وتبللها قليلًا على لوح من الأردواز ووعاء

يضم العصير السحري. ماذا تحتاج أكثر من هذا الآن يا رسام

الأفكار غير أن تغمس الفرشاة؟ تلك الفرشاة الهيفاء الأثيرية تقريبًا والتي توصل ما هو خارج من أعماقنا عبر مفاصل أصابعنا إلى حريق القصيدة.

بول كلوديل

أنا متأخرة لعشرين دقيقة -لا، ثلاثين- وأسرع بتهور عبر الشوارع فاحمة الظلام، أنا تائهة تمامًا وعلى نحو لا يطاق، قلبي يدق بعنف، وعيناي تغشاهما الدموع؛ أهاتف كونيكو، أفشل في الإجابة على سؤالها الأول: *أين أنت؟* الشوارع، التي كانت أليفة للغاية بالنسبة لي في النهار، لا يمكن تمييزها في الليل، أنزل الهاتف عن أذني بينما هي ما زالت تتكلم لأني لا أستطيع فهم التعليمات التي تقدمها لي.

أخيرًا، أصادف مجموعة من الأكواخ البنغالية ملحق بها جراجات ومساحات أمامية من العشب الأخضر؛ لمحة من ضواحي المدن في الريف، أجد البيت الذي أبحث عنه؛ تشي الحديقة به، يسقط الوهج الناعم القادم من النوافذ على أوراق الزرع، مضيئًا حمرة شجرة قيقب صغيرة قرب المدخل. بخلاف الجيران، أرض الحديقة مغطاة بحصى أبيض، مكنوس بالمذراة جيدًا، وأسفل شجيرات البرباريس الشوكية مجموعة معتبرة من الحجارة المرتبة. بالطبع، لا بدَّ أن يملك معلم

الخط حديقة يابانية نموذجية، أما الأسلوب الغربي المهلهل ذو أحواض الزهر الصغيرة فلا يناسبه.

رغم اعتذاري المندفع الدامع، يبدو أن المعلم يجد الواقعة بأكملها مسلية للغاية، اتصلت كونيكو، وهو يشرح لها مبتسمًا. من الصعب أن تجد طريقك إذا لم تكن من هنا. أومئ برأسي معتذرة، وتعتريني حمرة الخجل عندما لا أستطيع فك رباط حذائي دون الاضطرار إلى الجلوس على الدرجة المفضية إلى الشرفة الأمامية، أعتذر مرة أخرى -أنا خرقاء للغاية!- وأنتزع حذائي بالقوة.

«خذي وقتك..». يقول وهو يناولني زوجًا من القباقيب.

يتبين أن أخذ وقتك شيء هام في فن الخط.

منذ زمن طويل في المدرسة، تعلمت أنه في الإسلام لا معنى هناك من أداء الصلوات إذا كنت مشتتًا أو إن كنت تفتقر إلى النوايا الطيبة، لا بدَّ أن تكون في الإطار الذهني الصحيح حتى قبل أن تدخل المسجد، قبل أن تغسل قدميك ويديك، قبل التهيؤ للصلاة، على نحو مشابه، ينبغي أن تكون مركزًا وهادئًا قبل أن تتناول فرشاة الخط خاصتك في يدك، ينبغي أن تكون ممتلئًا بالنوايا الطيبة، حتى تجهيز الأواني هو فعل يتطلب التركيز، هو تنقية للذهن.

«خذي وقتك.». يقول، عندما أسقط على *الزاباتون* (وسادة الجلوس)، أكثر توترًا من أن أحاول الجلوس بشكل صحيح بركبتيَ مطويتين.

يجلس خمسة آخرون حول المناضد الواطئة، رجال متقاعدون في الغالب، أصدقاء المعلم وزوجته، تقف زوجته وابنتها الشابة في المطبخ مرتديتين الرداء المنزلي، تسترقان النظر عبر الباب الصغير الذي يصل

حجرة الرسم بالمطبخ، وجهاهما الضاحكان مضاءان أسفل المصابيح الكهربية المزعجة، وسطح القرميد الأبيض.

«وجدته أخيرًا..». تقول الزوجة، مبتسمة. تنظر إليّ، لكنها تتحدث إلى زوجها.

«قال تاتينو-سان إنها ستتأخر».

«لم تعرف الطريق».

«الدنيا مظلمة جدًا في الخارج الآن».

في الركن الأيمن من الحجرة، مقام خشبي مصغر معلق فوق رؤوسنا، تزين سقفه سلاسل من الورق الأبيض الصافي، والجدران المنحوتة مغطاة بطبقة رقيقة من التراب.

الحجرة مليئة بنماذج الخط، مؤطرة وغير مؤطرة، كبيرة وصغيرة، بخطوط سميكة ورفيعة. للحظة، أنا في طوكيو من جديد، أتجول في معرض للخط في متحف الفن الحديث، هناك سمعت مجموعات من النساء يبدين إعجابهن بالقطع المختارة كجزء من مسابقة وطنية، كانت قاعة المعرض عارية وبلا ألوان غير آلاف الحروف السوداء الهزيلة المعلقة على الحوائط، بدت مستغلقة تقريبًا، لم أستطع تقدير الأعمال كفنّ لأني لم أعرف ماهية ما كنت أنظر إليه، ومع ذلك بقيت مثابرة، محاولة أن أتعلم كيف أنظر عن طريق ملاحظة الآخرين، كان المتفرجون اليابانيون يسيرون ببطء، ويقضون دهرًا في تفحص كل لوحة معروضة، جالسين القرفصاء على الأرضية لرؤيتها من زاوية، ومتحركين يسارًا أو يمينًا لرؤيتها من زاوية أخرى. كانوا يتحدثون بدراية عن الطريقة والمواد، وأدهشتني المفردات التي كانوا يستخدمونها بغرابتها: «طاقة»، «عنف»، «سريع»، بطيء»، «وديع»،

«متوحش». رغم أن كل قطعة كانت جامدة وأحادية اللون، كان الناس يصفونها بمفردات الحركة والزمن، قارئين الحروف بطرق لم أستطعها، بالضبط مثلما يمكن للشعراء اليابانيين القراءة والكتابة عن المناظر الطبيعية بطرق أبعد من إدراكي، مستخدمين لغة متخصصة كنت فقط بادئة في تعلمها؛ مقدسين ومختزلين الظواهر الطبيعية في رموز وخط الكانجي الجميل. الزهر والطير والريح والقمر: *كاتشوفُوجيتسو* - 花鳥風月؛ الشمس المصفاة عبر ورق الشجر: *كوموريبي* - 木漏れ日؛ أوراق الشجر الخضراء الجديدة في أول الصيف: *شينجيو* أو 新樹. وحتى سمتي الشخصية: *إيمي-يونًا* - 雨女 – امرأة تجلب المطر معها حيثما تذهب، كلما تعلمت المزيد عن الخط والشعر، أدركت قلة ما أعرف وإلى أي حد ما زال عليّ أن أمضي.

المعلم، وهو رجل متقاعد ضئيل بتعبير ناعس، يجلس إلى جواري، يجهز أشيائي، يضغط الحبر على الحجر، ويتخير الفرشاة، ويصحح مسكتي، وبالرغم من أنه إلى جانبي، إلا أن هناك شيئًا متصلبًا للغاية ومنغلقًا في وضعيته ومظهره المهندم بحيث يبدو وكأنه على مبعدة مئة ميل.

يسألني: «ماذا سنرسم اليوم؟». أنظر إليه في حيرة لدرجة أنه يضحك مرة أخرى، يظن أني لا أفهم اللغة. «ماذا عن الخريف؟» يقترح، متحدثًا بصوت عالٍ وببطء حتى أستفيد.

«ماذا عن الارتباك؟» يضيف أحدهم.

«أو التوهان؟».

«أو التأخير؟».

أبتسم. أرد: «لا». متذكرة شجرة القيقب. «كويو. أود أن أرسم كويو».

«مومیجي..». يقول المعلم برقة. القيقب الياباني. أريد أن أقول مثل الشجرة التي في حديقتك، لكني لا أملك الشجاعة الكافية، ذلك الشيء الرقيق الضئيل الذي تزرعه بعناد رغم أنه لا ينمو جيدًا هنا كما يفعل في الغابة، حمراء على نحو سقيم، مرقطة ببقع بُنيّة، لكنها قطعة من *الكويو* مع ذلك.

تُصفّر زوجته. وتسأل: «كيف تعرف هذه الكلمة؟».

«ربما لديهم نفس الكلمة في اللغة الإنجليزية». يقول مرجحًا.

لا، ليس لدينا كما أظن، لكني أستمر في الابتسام بأدب، أحتفظ بأفكاري لنفسي.

كويو أو 紅葉. الرمز الأول أو الكانجي الأول يعني أحمر، والثاني ورقة الشجر، كويو تُترجَم تقريبًا بـ«عندما تصبح أوراق الشجر حمراء في الخريف». يمكن -أيضًا- أن تُقرأ موميجي، بمعنى شجرة القيقب اليابانية، الرمز الأول 紅 –كو– يُستخدم في كلمات أخرى ويمكن أن يعني بطرق مختلفة: الشاي الإنجليزي، أحمر الشفاه، أحمر قانٍ، خمري اللون، قرمزي، وردي، أحمر. فهو يعبر عن لون عميق للغاية وواسع الطيف بحيث يشمل القرمزي والوردي والأحمر الصارخ ولون الشاي المطهي في الوقت نفسه. الرمز الثاني 葉 –يو– واحد من أكثر الرموز شيوعًا في الكتابة اليابانية، ويصدف -أيضًا- أنه أول رمز تعلمت أن أرسمه في فصل الخط في طوكيو، هو يُستخدم في نهايات أسماء المكان وأسماء النبات وأوراق الشاي والفصول وحتى السيجار، ويوفر صيغة العدد للأشياء العريضة المسطحة مثل الورق أو الأسطوانات (لدى اللغة اليابانية مفردات عدد مختلفة بناءً على نوع المعدود)، ويُستخدم في أوصاف الإبر والبراعم والشتلات، وهو يعني وحده ببساطة «ورقة الشجر». والأهم منها كلها هو استخدامه

في *كوتوبا* - 言葉 بمعنى «الكلمات» أو «اللغة». في اللغة اليابانية، أوراق الشجر هي الكلمات، والكلمات أوراق شجر. اللغة إذن هي شجرة الكلام؛ الصوت الذي يسقط من شفتيّ المرء هو أوراق الشجر الساقطة من الشجرة، تقول كوتوبا الكثير عن شاعرية اللغة اليابانية اليومية، وتبين -أيضًا- كم أن الشعر والخريف متصلان على نحو لا ينفصم. «يو» حاضر في الكلمتين المستخدمتين من أجل (اللغة) و(الخريف)، يربطهما معًا ويتوجه مباشرةً إلى ذاكرة القارئ البصرية وكذلك اللغوية.

ما كتبه الفيلسوف آلان واتس ذات مرة عن الهايكو صحيح -أيضًا- بالنسبة *للكويو*: إنه «حصاة ملقاة داخل بركة ذهن المستمع، لتستثير تداعيات من منطلق ثراء ذاكرته الخاصة». وياله من ثراء! الكيمونو الخمري، رائحة الماكريل المشوي وحساء الميسو، رؤية بدر التمام. أغاني الإنكا(5) القديمة، أناشيد الطفولة، الشعر الذي نحفظه عن ظهر قلب في الفصول الدراسية. ذكريات الإجازات ورحلات اليوم الواحد مع الأسرة لرؤية أشجار القيقب والتعجب منها، كعكات الأرز الحلو الحمراء والصفراء المدموغة بأشكال ورق الشجر، رائحة البطاطا الحلوة، شاي نبات الأرقطيون الساخن، الرسوم المعقدة على قماش الحرير، والكانجي أيضًا؛ الذي يجمع اللغة والمجاز والفن معًا، *كويو* ليست مجرد ظاهرة طبيعية، إنها توحي بنوع من التأمل، مختلف عن ذلك الخاص بمشاهدة زهرة الكرز، فعلى خلاف *هانامي*، لا تبشر *كويو* بمقدم شهور الصيف، إنها مهلة قبل الشتاء: القطعة الأخيرة من الجمال النباتي قبل أن يطغى الجليد على المشهد.

هناك خمس عشرة دقيقة فقط باقية من درس الخط، أبدأ في العمل على عجل، مرة بعد مرة، تنزلق يدي بالفرشاة عبر الصفحة،

محاولة أن أقتنص كويو في دوامة جميلة من الفعل العفوي، أفشل. إنها فظيعة، أعني محاولتي؛ أشبه بمحاولة طفلة. بل أسوأ من طفلة؛ لأن أي طفلة يابانية تعرف على الأقل الكانجي، لا يمكنني التمكن من ترتيب الضربات بشكل صحيح، واحدة، اثنتان، الأولى عموديًا، أم كانت أفقية؟ من اليسار إلى اليمين أم من اليمين إلى اليسار؟ كلما تعجلت أكثر، ساءت النتائج.

«خذي وقتك». يركع المعلم بجانبي ويضع يده على يدي محركًا الفرشاة عبر الصفحة، لمسته مريحة، والمسافة التي يُبقيها بيننا تقترب قليلًا، أحاول مرة أخرى وحدي، لكن النتيجة هي نفس الكارثة؛ مفككة وناقصة، تتداعى الخطوط التي خرجت بسلاسة من يد معلمي في كومة وكأنها تحاول العثور على أرض ما كي تقف عليها لكنها تفشل في أن تجد ما تمسك به. خطوط الحبر التائهة أشبه بطرق الريف المظلمة. أشعر بالخجل، وهو شيء غريب؛ لأني شببت معتادة على إذلال نفسي بألف طريقة يومية واعتقدت أنها قد شُفيت من الحرج، يُذكرني المعلم بالتدرب في البيت (وهو ما لا أفعله أبدًا)، وبعد أن يصحح عملي، يطوي بحرص الأوراق الملطخة بالحبر ويغسل الفُرَش وحجر الحبر، تقدم لي زوجته فنجانًا من شاي الشعير قبل أن تختفي في المطبخ، غير واثقة مما عليها أن تقوله، تجرب ابنته إنجليزيتها، لكنها لا تستطيع أن تقول أي شيء غير اسمها، واسم والدها، والبلد الذي تعيش فيه.

---

(5)- نوع من الأغاني الجماهيرية الشائعة في اليابان والتي تُعتبر مشابهة للموسيقى التقليدية اليابانية أسلوبيًا. (المترجم)

4

الزيارة

في نيسيكو-تشو، هناك سكان سِرِّيُون، بيوتهم -ليست أكبر من حظائر، نصف مهجورة، والسقف عبارة عن صفائح من الزنك المموج- متناثرة عبر الوادي، مخفية في أماكن بعيدة عن الطريق، بالكاد أمكنني تصديق أن الناس نجوا من شتاء نيسيكو في هذه الأبنية. أقرب بيت منها لبيت تاتينو-سان يقع على مبعدة مئتي ياردة أسفل التل، ويسكنه، كما قيل لي، أرمل عجوز -كان في ما مضى فلاحًا ثريًا- وكان المالك الأصلي للمنطقة. لم تره كونيكو -في العشرين عامًا التي عاشتها هناك- إلا مرة واحدة عندما أصابته سكتة دماغية وتم استدعاء الإسعاف. «لا بدَّ أنهم أعادوه..». قالت. «ما زال رجل توصيل الطلبات يجيء أيام الأربعاء، ويترك البقالة عند الباب الخلفي».

بدأ درس الخط الخاص بي بزيارة إلى واحد من هذه البيوت القديمة الأصلية، أتت بي كونيكو لزيارة صديقة لها، يوكوتا-سان؛ لأنها كانت تمتلك ورق خط وحبرًا زائدًا، مختبئًا بين غابة وحقل به صوبات هائلة كان يقع بناء من طابق واحد منخفض السقف، في الخارج كان ثمة كلب مربوط بسلسلة، وأذناه مسطحتان على رأسه، في الداخل، كانت الحجرة مليئة بالأشياء: أغلبها مفروشات منقوشة وأثاث ملفوف بملاءات خفيفة، وملابس ومجلات، تَعلَّق مزار شينتو أعلى المدفأة، وحُشرت في الركن صفيحة تسخين وثلاجة، وتدلت أدوات طهي معلقة على الحائط، وكانت يوكوتا-سان، وهي امرأة في منتصف العمر ذات شعر رمادي قصير، تتحرك في المكان ببطء، لتُعد لنا الشاي، لم تكن يوكوتا-سان تشبه أيًا من صديقات كونيكو الأخريات،

بدت مختلفة، لأمر واحد؛ كونها امرأة كبيرة الحجم ذات رأس ووجه يستحقان المشاهدة، كان صوتها عميقًا ومتثاقلًا، مثلما كانت كل أفعالها؛ صبورة وبائسة؛ وكأنًا كنا نملك كل الوقت في العالم.

كانت هناك سيدة عجوز جالسة على الأريكة خلف يوكوتا-سان؛ لم تقل شيئًا عندما دخلنا ولم تقل كونيكو أي شيء لها، لم تتحرك السيدة العجوز ولم تصدر أي صوت باستثناء التربيت بين الفينة والفينة على البطانية التي تغطي حِجرها، كان رأسها محنيًا إلى أسفل بشدة لدرجة أنه يكاد يلمس ترقوتها؛ وكان شعرها أبيض مصفرًا. حكت لي يوكوتا-سان عن بيتها، كيف وُلدت في الحجرة التي كنا نجلس فيها، كيف زرع والدها الفدادين الممتدة من هنا إلى أرض فُلان، حكت لي عن طفولتها عندما لم يكن لديهم ماء جارٍ ولا كهرباء ولا سخّان غاز، كان الأطفال يخرجون لجمع الثلج، ويذيبونه للحصول على الماء، قالت إن وقتها كان الجميع يعرف الجميع، واتضح أن يوكوتا-سان لم تذهب أبدًا أبعد من هاكوداتِه؛ وهي مدينة على مبعدة ساعتين بالسيارة. سألتني كيف وصلت إلى هوكايدو، وأبدت دهشتها من وجود مطار قريب هكذا، لم تكن قد ركبت طائرة قط.

عند استلام الورق والحبر، أوضحتُ كم كنت فظيعة في الخط وشكرتها بتلك الطريقة المبالغ فيها التي علموني إياها في المدرسة اليابانية، لم يبدُ عليها أنها تأثرت من كلماتي، بل كانت تنظر إلى مكان ما خلف كتفي، لم تكن تتحدث بكل هذا القدر، لكنها عندما كانت تتحدث؛ كان ذلك يتم بتأنٍ لدرجة أنه كان يبدو وكأنه لا يوجد أي شخص آخر في العالم لديه أشياء أهم كي يقولها، في فترات الصمت، كان بمقدوري رؤية كونيكو تغدو ضيقة الصدر، لكن بدا أن يوكوتا-سان ليست من النوع الذي يتم استعجاله.

فجأة نهضت السيدة العجوز، التي كانت جالسة خلفنا طوال الوقت في تجاهل تام، عن الأريكة، اندهشت للغاية حتى أني دفعت مقعدي إلى الوراء ونهضت وكأني أفسح مجالًا لها. بدت عجوزًا وضعيفة للغاية لدرجة أني لم أصدق أن بمقدورها النهوض على الإطلاق. كان ظهرها محنيًا على نحو فاحش حتى أن جسدها كان عرضه مثل طوله، ولأن هذه الحالة شائعة للغاية، تمتلك اللغة اليابانية كلمة خاصة لهذا - 小柄 أو *كوجارا*– وهي كلمة تصف الإطار المنكمش للسيدات العجائز اللاتي يعشن حاملات الآثار المتأخرة للمجاعة في الحرب العالمية الثانية، انزلقت البطانية إلى الأرضية عندما نهضت، وتعلقت بقدميها في القبقاب.

«هذه حماتي». أوضحت يوكوتا-سان.

«كيف حالها؟» سألت مضيفتي.

«ليست بخير. لا يمكنني أن أتركها وحدها. خرجتُ لدقيقة من بضعة أيام كي أطعم الكلب وحاولت أن تصب الشاي لنفسها، وانسكب الماء المغلي على الأرضية كلها».

أومأت كونيكو-سان: «لا تغادر حماة يوكوتا-سان المنزل». أخبرتني.

«لا بدَّ أنه من الصعب عليها أن تخرج من البيت، ياله من عمل كثير عندما تكبرين في السن، وكل شيء يؤلم..». أسهبتُ، متظاهرة بأني أعرف شيئًا عن صعوبات التقدم في السن.

«الأمر أكبر من هذا. ترين، هي لم تغادر المنزل طوال أربعين عامًا..». قالت كونيكو. أومأت يوكوتا-سان، لكنها لم تقل شيئًا. استمرت كونيكو: «لم تخرج منذ مات زوجها، وحتى الآن».

«أوه لا، كان ذلك قبل أن يموت، لم تكن تحب أبدًا مغادرة البيت حتى

في ذلك الوقت».

«انتقلت إلى هنا مع يوكوتا-سان وزوجها منذ أربعين عامًا، واضطرت يوكوتا-سان إلى الاعتناء بها طوال هذا الوقت، حتى بعد وفاة زوجها، السيد يوكوتا. أليس هذا صحيحًا؟».

«ليس لديها أي شخص آخر..». قالت يوكوتا-سان. ركزّت عينيها، متخذة فجأة جدية هامسة، ومالت إلى الأمام: «إنها ليست حتى أمي!» اكتفت كونيكو-سان بهز رأسها.

حزمتُ أدوات الخط بحرص، أكدت عليَ صاحبة البيت مرارًا وتكرارًا أني لست في حاجة لردّها، وبمجرد أن استقرت الحماة بأمان على الأريكة من جديد، سقطتْ في النوم.

«انتظرا دقيقة. أريد أن أتأكد أنها نائمة بالفعل..». قالت يوكوتا، فقط عندما بدأت المرأة العجوز في الشخير تمكنت يوكوتا-سان من الخروج معنا في جولة سريعة بالسيارة.

قادتنا كونيكو إلى نصب آريشيما التذكاري، حيث كانت أشجار زان وقيقب كثيرة قد تحولت إلى لون خمري مؤقت، لم نخرج من السيارة، بل جلسنا لدقائق قليلة، نعلق على الأجواء الكئيبة والغيوم المطيرة التي تجمعت فوق رأس تاكيو آريشيما. ضغطت يوكوتا-سان جبهتها على النافذة، متطلعة إلى التمثال، كان آريشيما واقفًا في مشهد خالٍ، وذراعاه مستقيمتان إلى جانبه، وتعبيره جامد، منذ مئة عام، ترك الكاتب والشاعر الشهير الحياة الأدبية في طوكيو إلى الريف الشمالي، حيث وقع في حب امرأة متزوجة؛ أنهى الاثنان علاقتهما العاطفية بشنق نفسيهما في موقع سري، واستغرق الأمر أكثر من شهر حتى تم اكتشاف مكانهما، والآن جرى استعادة آريشيما في المشهد العام،

وجسده متوجه نحو الغابة ورفيف الأغصان الرقيق.

«من اللطيف رؤيته..». قالت يوكوتا-سان. «قد لا تواتيني الفرصة مرة أخرى».

أفضل ألوان الخريف ينتج عن التحولات الملحوظة في درجة الحرارة؛ النهارات الدافئة المشرقة والليالي شديدة البرودة. تسبب التغيرات المفاجئة في المناخ تغيرًا مفاجئًا في أوراق الشجر. تكون *المومیجي* أكثر احمرارًا بشكل مذهل عندما تكون قرب الماء أو على منحدرات الجبال أو الوديان العميقة، بمعنى آخر في الأماكن التي تتحول فيها الطبيعة بطريقة قصوى نوعًا ما، أما ظاهرة سقوط الأوراق فهي بسبب حفاظ الشجر على الطاقة من أجل شهور الشتاء، ويكون الأصفر والبني هما اللون 'الحقيقي' لورقة الشجر عندما يتوقف إنتاج الكلوروفيل، ومع ذلك، فإن اللون الأحمر المميز *للكويو* كما يُرى في أشجار القيقب الياباني والكاكي والكرز، هو استثناء. ألوانها الحمراء والبنفسجية مصنوعة من صبغة اسمها أنثوسيانين، تنتجها الشجرة بنشاط عند نهاية الصيف، بعيدًا عن كونه غيابًا للكلوروفيل، فإن هذا اللون ناتج عن الحضور غير المعتاد للأنثوسيانين، هذه الصبغة انعكاس لطاقة الشجرة، لحيويتها، الحافز الأخير قبل الشتاء، ثمة افتراضات عديدة حول السبب الذي يجعل أي شجرة تهدر مواردها في هذه العملية، تشمل صد الحشرات، أو حماية أوراقها من ضوء الشمس، أو إعاقة نمو الشجيرات القريبة عبر عملية كيميائية تُدعى التضاد البيوكيميائي، لكن هذه كلها افتراضات، ولا توجد إجابة نهائية. كويو، حتى في ضوء كل عملياتها الكيماوية، هي حدث غامض، ربما تحدث ببساطة لأنها جميلة، والجمال ضروري للحياة، بعض الأشياء في الطبيعة جميلة لخاطر الجمال؛ مثل عصافير الجنة أو الأحجار الكريمة.

على مبعدة مئة ياردة منا كانت توجد بحيرة صغيرة، انعكست الأغصان المتدلية لأشجار القيقب في المياه المظلمة، وكان الانعكاس واضحًا للغاية حتى أن الشجرة بدت وكأنها تنمو صاعدة من قاع البحيرة، حتى أوردة الأوراق والظلال على سطحها كانت مرئية في الماء، المنظر ساكن وصامت كصورة فوتوغرافية، تجربة مختلفة للغاية عن حيوية طوكيو وقت الربيع، حيث تتكدس البتلات الوردية في الحدائق العامة وتتساقط كالشلال بفوضوية على الشوارع. *كويو* و*هانامي* يتشاركان نفس الانشغالات بانفلات الوقت، الجزر والمد، الخسارة والمكسب خلال العام، ومع ذلك، فإن أوراق الخريف ليست هشة مثل زهر الكرز، الذي يتطاير في الريح عند أقل استثارة، هي أقوى؛ رمز للصلابة اللازمة من أجل الشتاء، وتحذير من التغير الكلي المفاجئ الذي سيجتاح الطبيعة في هوكايدو عندما يسقط الثلج. *هانامي* هي متعة الحياة، تعاش وتُفقد على نحو صادم في ما لا يزيد على أسبوع إلا قليلًا. أما *كويو* فتتعلق بضرورة التغيير والعمل الفاتن للتحولات.

الطبيعة لديها القوة كي تتغير كليًا، وبما أن الكائنات البشرية جزء من الطبيعة، فإننا -أيضًا- نمتلك القوة كي نتغير، ربما كان هناك أمل بالنسبة لحماة يوكوتا-سان. يومًا ما، قد تطلب أن تؤخذ في جولة سريعة بالسيارة. يومًا ما، قد ترى *الكويو* مرة أخرى بعد أربعين عامًا، وهي تحيط بتمثال آريشيما. العالم يتطور باستمرار، ورغم أن هناك أشخاصًا ينسحبون إلى داخل ذواتهم، خجلين وخائفين من الحياة، ربما يكون هذا جزءًا ضروريًا من النمو، مثل نبات ينسحب إلى داخل التربة في الشتاء كي يحمي نفسه من البرد.

قالت يوكوتا-سان: «من الأفضل أن أعود».

5

الختم

قال: «إذن، سأغني..» وبدأ، ليبدو أشبه بروح طفل غريب.

«الشمس تشرق.. الشمس تشرق. هذا هو السحر.

الزهور تنمو.. الجذور تتحرك. هذا هو السحر.

أن تكون حيًا فهذا هو السحر. أن تكون قويًا فهذا هو السحر.

السحر فيّ.. السحر فيّ. إنه فيّ. إنه فيّ.

إنه في كل واحد منا. السحر!»

تميمة كولِن، الحديقة السرية

زهور الكرز، طائر الوقواق، القمر، الثلج. في مواجهة

كل أشكال الطبيعة المتعددة، تمتلئ عينا [الشاعر]

وأذناه بالفراغ. عندما غنى عن الزهور لم تكن الزهور

في ذهنه، عندما غنى عن القمر لم يكن يفكر في القمر...

بروح تشبه السماء الخالية يمنح لونًا لكل المشاهد المتعددة

لكن لا يبقى أي أثر [...] لدينا هنا الفراغ، العدم، في الشرق.

ياسوناري كاواباتا، خطبة قبول جائزة نوبل للأدب، 1968

كان أول كتاب قرأته في نيسيكو -والذي تصادف أن كان أول كتاب بالإنجليزية أقرأه بعد زمن طويل- هو (الحديقة السرية)؛ الحديقة السرية رواية عن التحول والتجلي، تتحول الحديقة من بريئة نصف

ميتة إلى فردوس، ومع تغيرها، يتغير البستانيون الأطفال الذين يرعونها، العالم الطبيعي هو المحفز للتأمل والصحوة وتطوير الذات، والتغيرات الكثيرة -التورد في خدود الأطفال، الطاقة في أطرافهم، الزهور في تفتحها- كلها نتيجة لاندماج الشخصيات مع الطبيعة.

تصف تميمة كولِن هذه القوة التحويلية بـ«السحر»، أصل كلمة سحر بالإنجليزية magic -من الكلمة اليونانية magus- يشير إلى قوى الطبيعة الغامضة و«غير المعروفة حتى الآن»، هذا السحر يشفي كل العلل؛ علل الجسد (ضمور العضلات، الروماتيزم) والعقل (الهيستيريا، الاكتئاب) والشخصية (الأنانية، الطمع). في نيسيكو خضعتُ -بطريقة أقل دراماتيكية- إلى شيء يشبه التحول الموصوف في الكتاب، مثلما فعلت الشخصية الأساسية، ماري، صنعتُ اكتشافاتي السرية الخاصة. مثلها، استكشفتُ الدروب والبساتين والأراضي القريبة من حيث كنت أعيش، وكنت أعود في المساء متعبة ومحمرة الخدين، مشعثة من الهواء الطلق، ركبت الدراجة وجريت وشققت طريقي عبر دروب في غابات كثيفة مثل طفلة تفرُّ من والديها. انفتح عقلي -المفرغ من قلقه- على أفكار وخبرات جديدة، وتملَّكه إحساس بالتمدد والحرية، خرجت ورأيت السحر بنفسي وتقبلته، مثل ماري، كدواء للروح.

كلمة أخرى غير قابلة للترجمة: *ديجاكيرو*: الخروج، أن تخرج، تحمل صيغة الفعل غير المتعدي أصداء الشكل المحتمل، بحيث تبدو -بالنسبة لطالب يدرس اليابانية- أشبه بـ«أن تخرج وتغتنم اليوم» مثقلة بالاحتمالات، في اليوم الثاني من إقامتي، أعارني تاتينو-سان دراجته، دراجة جبال صبيانية مدمجة، بها تروس أكثر مما أعرف ماذا أفعل بها، تأرجحت بي وأنا أهبط الممشى قبل أن أشق طريقي بهدوء عبر الدرب الحجري، مرورًا بمزرعة النعام، وبنعجة الجيران الوحيدة،

وصلت إلى قمة التل وتركت دراجتي تنطلق هابطة، ووشاحي يضرب وجهي، شاهدني يوتاي-سان، الأخضر والرائق في كسوته الصيفية، وأنا أرتحل عبر حقول وجسور ومزارع مواشي نيسيكو-تشو. بمرور الوقت، هجرت الدراجة بسبب البرد، وبدلًا منها، كنت آخذ هانا في تمشيات، حريصة ألا أقترب أكثر من اللازم من كلب الجيران الألزاسي؛ الذي كان يخيفها، كانت هذه التمشيات منعشة ومبهجة، حيث يُصفِّي الهواء المُجمَّد العالم من حولي، ويبلور أفكاري.

ذات صباح، بعد شهر من تلك الجولات الأولى بالدراجة والتمشيات في نيسيكو، نزلت إلى الطابق الأرضي لأرى كونيكو منفعلة تميل ناظرة من النافذة الشرقية.

«تعالي انظري!» قالت. «هل تلاحظين أي شيء مختلف؟».

في الليلة السابقة كنا قد أقمنا حفل سايونارا، وكانت أكواب قذرة كثيرة مصطفة فوق المنضدة؛ وبدت حجرة المعيشة في هيئة منهكة شعثاء، كان تاتينو-سان راقدًا على الأريكة، جواربه على الأرض، يغفو وكأنه لم يتحرك طوال ساعات.

«ما الأمر؟» تساءلت وأنا أتحرك مقتربة أكثر، كانت كونيكو تولي ظهرها لي، إحدى يديها على فخذها، ووجهها ملتفت إلى الناحية الأخرى، لكن كان بمقدوري معرفة أنها كانت تبتسم.

توقفت. على منضدة المطبخ رقدت هدية مُنحت لي الليلة السابقة، ما زالت نصف مختبأة في ورق اللف الممزق، كانت علبة مستطيلة صغيرة، سوداء اللون، بها مشبك فضي؛ أغلى شيء تلقيته في اليابان، ابتسمت بينما ذكريات المساء تعود لتدفئني، التقطت العلبة وفتحتها، بداخلها كان هناك *هانكو* –ختم– واسمي بخط الكانجي محفور كنقش

عليه، كانت حروف المباركة والرخاء والسلامة محفورة بأناقة في الحجر. *الهانكو* هو التوقيع المستخدم لإتمام عقود الزواج والوصايا واتفاقات الإيجار والاقتراعات وجوازات السفر، التوقيع الذي لا تحوزه إلا تلك الأسماء التي يمكن كتابتها بخط الكانجي، وفقط هؤلاء الذين يملكون توقيعًا يمكنهم الدخول بشكل شرعي في المجتمع الياباني (يصوتون، يفتحون حسابات مصرفية، يحصلون على قروض عقارية، وما إلى ذلك). ختم *الهانكو*، إذن، ليس مجرد تذكار جميل، لكنه رمز رسمي بالتضمين.

قرأت الحروف مرة أخرى، متتبعة إياها بأصابعي. 恵利音. لقد تم إضفاء الطابع الياباني على اسمي الويلزي، مثلما حدث لأسماء أماكن الآينو، في هذه الحالة، كان تصرفًا كريمًا، كنت سعيدة بإعادة تعميدي في خط الكانجي، ومبتهجة أن اسمي الجديد أمكن حفظه في حجر. الهانكو، رغم كونه شيئًا ضئيلًا هزيلًا، ليس أكبر بكثير من سيجار صغير، كان مفتاحًا لذاتي الجديدة، ذاتي اليابانية: علامة، مقفل عليها بأمان في علبة مبطنة بالحرير، إن ما مررت به هنا لا يمكن أن يُنسى.

«توقفي عن اللهو بهذا الآن..». قالت كونيكو بصبر نافد. «تعالي وانظري!».

قبضت على *الهانكو* بإحكام في يدي اليمنى وانضممت إلى كونيكو حيث كانت تقف قرب النافذة، حزَّت المسكة في باطن كفي. جال بخاطري: *لا يجب أن أفقد هذا*. في مكان ما في الطريق من هنا إلى ويلز، سأفقد مئة شيء تافه، لكن لا يجب أن أفقد هذا.

«أترين؟ انظري كم يبدو شاحبًا!» قالت كونيكو.

كانت تتحدث عن يوتاي-سان، وكان الثلج قد سقط على قمته.

هاتسويوكي أول ثلوج العام، الخطوط البيضاء، الرقيقة والمنمقة، حيث سقط الثلج في نتوءات الجبل، تشبه شبكة من الدانتيلا، بدا الجبل مندهشًا منها؛ طفل صغير طرطش عليه الماء، فوقف بعينين مفتوحتين على اتساعهما، كنت قد قرأت في مكان ما أن اليابانيين يمكنهم قضاء حياتهم «يتأملون الثلج»، وبالنسبة لآل تاتينو، كان عليهم أن يتعاملوا معه لمدة سبعة أشهر كل عام، من نوفمبر إلى مايو، أسابيع كاملة يرفض فيها تاتينو-سان أن يترك منحدرات التزلج، وأيام لا تترك فيها كونيكو البيت.

«ستكون بيضاء تمامًا خلال شهر. لن تميزي أي مكان حولنا بعد ذلك. سيكون الأمر مختلفًا تمامًا. أرض عجائب شتوية!».

كانت كونيكو على حق. عندما جئت مرة أخرى في يناير، كانت نيسيكو قد تحولت إلى بلدة مختلفة تمامًا، حتى السكان كانوا قد تغيروا، حيث انتقل إليها المتزلجون الشباب، وكذلك المغامرون الأستراليون بألواح التزلج معلقة على ظهورهم، لم أعرف طريقي في الجوار إطلاقًا؛ فقد كانت كل العلامات والمعالم مطموسة بطبقات من نثار الثلج.

فقط الناس هم الذين لم يتغيروا، حتى بالرغم من أن وجوههم كانت نصف مخبأة أسفل قبعات الفرو، وسترات التزلج، والكوفيات. كان تاتينو-سان يعاني من ضربة شمس نتيجة قضاء وقت أكثر من اللازم على المنحدرات، لكن الجارة وزوجها كانا شاحبين مثلما كانا عندما تركتهما، وكان معلم الخط ما زال يرتدي ثيابه السوداء، ويبدو أكبر عمرًا مما كنت أتذكر، زارنا موسيقي الجاز وزوجته وابنته الخجول ذات الثلاثة عشر عامًا -التي حاولت عبثًا تعليمها الإنجليزية- حاملين ثمار قرع عسل مطهية بالبخار، زارنا مدير المدرسة المتقاعد وطلابه

السابقون، محضرين زجاجات ضخمة من *الشوتشو* والساكي، كان عيدًا للجليد من نوع ما؛ عشاء آخر في بيت آل تاتينو، حيث جرى شواء السمك المملح على ألواح التسخين، جاعلًا البيت بأكمله يفوح برائحة الماكريل ودخان الحطب، كان الظلام دامسًا في الخارج، باستثناء الثلج الضاغط على أسفل النوافذ والهيكل الشبحي ليوتاي أسفل النجوم.

جلست النساء عند طرف المائدة، قرب المطبخ، أما الطلاب، الذين جاؤوا للإقامة طوال الموسم من أجل التزلج بالألواح على الجليد، فقد جلسوا على جانبي، تحدثوا باليابانية المهذبة مع معلمهم وباليابانية غير الرسمية معي، كانت وجناتهم متوردة بسبب النار وبسبب اللون الذي اكتسبوه من البقاء خارجًا طوال اليوم. ثمة وقت، ليس من زمن طويل، لم أكن فيه لأقول الكثير؛ خوفًا من الضياع في محادثة لا يمكنني تتبعها. لكن الآن، يا للغرابة!، بدا أن الكلمات تأتي بسهولة، سألتهم عن وقتهم في نيسيكو، وردُّوا بحكايات مليئة بالأدرينالين واستعراض البطولة، عن أجنبية سقطت وكسرت لوحها -من المستحيل أن ينكسر لوح!- وانكسر لها ثلاثة ضلوع؛ عن الثلج في العيون، الذي أصاب أحدهم بالعمى بينما كان منطلقًا بسرعة مئات الكيلومترات في الساعة -مئات!- هابطًا الجبل، بدا الحديث بأكمله بسيطًا للغاية، كما لو أن الجدار الذي كان واقفًا بين العالم واستيعابي -الجدار الذي كنت أترجم عنده بطريقة خرقاء كل جملة إلى الإنجليزية قبل أن أتمكن من فهمها- قد انهدم، انجلت غشاوة ما في عقلي، واستمعت إلى حكايات اليوم باستمتاع، دون قلق، وتحولت هذه الحكايات إلى صور ومرويات وانفعالات. صار للجمل التي تصف ذروة النكات معنى، لأول مرة، ووجدت نفسي أضحك حتى دمعت

عيناي.

استمر العشاء إلى وقت متأخر، غادرت الفتاة ذات الثلاثة عشر عامًا ووالداها، وكذلك فعل بضعة أشخاص آخرين، بقي الطلاب ومدير المدرسة، وكذلك معلم الخط؛ بالرغم من أنه لم يتحدث كثيرًا طوال الليلة، لكنه قبل عرضي بشرب الشاي، وراقبني بارتياب بينما كنت أضيف إليه اللبن.

«هل هذا صحيح؟» تساءل متعجبًا. أوضحت أن ذلك كان طبيعيًا في ويلز.

«كيف حال طوكيو؟» تساءل.

قلت: «كما هي. كيف حال حديقتك؟».

«آه، الحديقة. لا يمكنك رؤيتها الآن. الثلج في كل مكان. لن أستطيع أن أفعل شيئًا حتى نهاية أبريل، ربما ليس قبل مايو. لكني عجوز جدًا بالنسبة لها الآن».

كنا جالسين منفصلين قليلًا عن البقية الذين كانوا ينهون آخر زجاجات الساكي، أمسكت فنجان الشاي بيديّ الاثنتين، قلّدني معلم الخط، بدت الحركة غير معهودة منه حتى أني ابتسمت.

تساءل: «هل كنتِ تتدربين؟».

هززت رأسي: «ليس هناك الكثير من الوقت. ولا المجال».

«إنها طوكيو..». قال وهو يومئ برأسه: «مكان صعب للعيش».

حاولت أن أصف شقتي: الحجرة الوحيدة التي عشت فيها، فرن الغاز الوحيد، الفراش الذي كنت أطويه كل صباح وأفرده كل مساء، المائدة الوحيدة، لكل شيء.

«هذا أكثر مدعاة لأن تمارسي الخط». قال: «من المهم أن ترسمي، أن تسترخي، أن تريحي ذهنك».

«نعم..». قلت وأنا أرشف شايي.

تابع: «عشت في طوكيو في ما مضي، والناس هناك يعيشونها بصعوبة، يذهبون إلى العمل كل صباح، متدافعين في القطارات المزدحمة، ويعملون لساعات طويلة.... لا، لا، لم تكن لتناسبني».

عاودتني ذكرى: وأنا عائدة من العمل متأخرة ذات مساء، جالسة في قطار خالٍ تقريبًا. عيناي تنغلقان من إرهاق متابعة اللغة اليابانية، أمامي كانت تجلس شابة في مثل سني، تضم إلى صدرها بقوة دمية هالو كيتي(6) محشوة، تمسد رأسها، وتصدر أصوات مواء دون أن تحرك شفتيها؛ مثل شخص يتحدث من بطنه جاعلًا الدمية تتكلم، ومن وقت لآخر، كانت تؤرجح الدمية من جانب إلى آخر في ذراعيها كأنها طفل رضيع.

«هل هذا هو السبب في انتقالك إلى هنا؟» سألت معلم الخط محاولة أن أنسى الشابة.

«نعم، واحد من أسباب أخرى، لدى زوجتي عائلة هنا، لذا بدا الأمر طبيعيًا. عندما كنا نعيش في طوكيو، لم تكن زوجتي تعرف أحدًا. لم تكن تخرج».

«من الصعب لقاء الناس في طوكيو». قلت بدوري، متملقة.

كرر: «لم تكن تخرج. انتهى ذلك الآن، لحسن الحظ. هي سعيدة هنا».

وضع معلم الخط الشاي جانبًا، دون أن يشربه.

«هل تذكرين درسك الأول معي؟».

«أتذكر أني كنت متأخرة على نحو فظيع».

«اعتقدت أنك كنت قلقة للغاية وغير سعيدة».

«تهت في الظلام. لم أعرف أين كان أي شيء».

«لكنك تعرفين الآن، أليس كذلك؟ حتى في الثلج».

«لا أعرف».

«يتغير الناس طوال الوقت. انظري إلى زوجتي. إنها شخص مختلف هنا عما كانت عليه في طوكيو. يتغير الناس مع الزمن، نعم، لكن مع المكان أيضًا».

لم أقل شيئًا. تطلَّع هو إلى الخارج من النافذة الشرقية، كان القمر ينير الليل، ملتمعًا على القمة البيضاء ليوتاي.

«تأخر الوقت. يجدر بي العودة. ستكون زوجتي ساهرة تنتظرني».

احتج الطلاب بلطف –ابقَ! ابقَ! لماذا تذهب الآن والليلة تبدأ للتوّ؟- لكن معلم الخط هز رأسه، ونهض من مكان جلوسه على الأرض، وتأهب للرحيل، وبعد أن ألقى تحيات الوداع، التفت إليّ عند الباب وقال: «لا تستسلمي». لم أكن متأكدة إن كان يقصد الخط أم شيئًا مختلفًا تمامًا.

في وقت متأخر بعد ذلك بكثير، وعندما غادر الجميع، صعدت إلى حجرة نومي القديمة، كانت حقيبة سفري الصغيرة قابعة في أحد الأركان نصف مفتوحة، وبدا اللحاف السميك مغويًا، وبينما كنت أخلع ملابسي، لمحت إضافة جديدة في الحجرة، كانت هناك، على الحائط، لوحة خطي، الخطوط المرتعشة لكلمة كويو مصقولة وملصقة في إطار أبيض. كل تردد، كل خلل، ذكرى الخريف الماضي، وبينما كنت راقدة على فراشي، محدقة فيها، متذكرة الليلة التي تهت فيها في الريف؛

أدركت أن الشخص الذي رسم هذه الحروف كان، ولم يكن، هو نفس الشخص الذي يقرأها الآن.

---

(6)- شخصية خيالية من إنتاج شركة سانريو اليابانية، ومن ابتكار الرسامة اليابانية يوكو شيميزو، وهي قطة بيضاء بذيل قصير وتعتبر تميمة للحظ السعيد. (المترجم)

شكر وتقدير

أتوجه بالشكر إلى مؤسسة دايوا الأنجلو-يابانية لمنحي الفرصة كي أعيش وأدرس في اليابان؛ وبشكل خاص جيسون جيمس، سوزان ميهان، جونكو كونو، وكذلك للمُحكّمين في (جوائز الكتابة الويلزية الجديدة): مارك كوكِر وجوين ديفيز لكرمهما الشديد في تعليقاتهما وتشجيعهما. شكرًا -أيضًا- للجميع في مجلة (نيو ويلش ريفيو) لدعمهم، وشكرًا لـ أولّي بيفينجتون وسام كريستي على رؤيتهم التصويرية الجميلة للمقال:

.www.newwelshreview.com/article.php?id=960

أنا -أيضًا- شديدة الامتنان لكرم الضيافة الدافئ والصحبة واللطف ممن قابلتهم في نيسيكو، خاصةً بِن ياماجيوا، إيلي ويلي، وبالطبع آل تاتينو –وكلبتهما هانا– الذين لولاهم لما أمكن لهذا الكتاب أن يُكتب. أخيرًا، شكرًا لوالديّ؛ اللذين هما أفضل قارئين يمكن لأي كاتب أن يأمل فيهما.


إليتيد جراميش
المرأة التي تجلب المطر
أدب رحلات
مذكرات من هوكايدو اليابان
ترجمة عبد الرحيم يوسف